

ترجمة نص حول شخصية

سيدي الحاج موسى بن حسن

أ. عيسى كويسي
قسم اللغة والأدب العربي
جامعة الأغواط

ملخص

المقال — مقتبس من كتاب "الجزائر الأسطورية" للعقيد ك. تريملي (C.Trumlet)، والمنشور سنة 1892، يسلط الضوء على شخصية بارزة — لكنها معروفة عند القلة — من شخصيات المقاومة الشعبية الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي في القرن التاسع عشر. أقصد موسى بن حسن الذي مارس التصوف السني، ولعب دورا حاسما في تربية السكان وبعث الشخصية الوطنية وروح المقاومة. وبالفعل فحياة الزهد والامتناع عن الماديات التي عاشها لم تصرفه عن الحياة التطبيقية ولا عن الحياة اليومية المادية المبتدلة ولا عن الفعل في المجتمع ضاربا المثل بأن الممارسة الدينية ليست نهاية في حد ذاتها، لكن قولبة الإنسان للقيام بمهمة الخليفة الفعالة. وبعد استشهاد حنطت رأسه وعرضت بالمتحف الإنساني بباريس.

Abstract

This article is an extract from the book « L'Algérie légendaire » by colonel C.Trumlet, edited in 1892, sheds light on a highly important personality, but not well-known, of the popular Algerian resistance against the French colonialism during the 19th century. It is Moussa Ben Hassen, a Sunni Sufist, who played a key role in educating the population aiming at awakening national identity and the spirit of resistance. Indeed, the hardships of his life had not turned him away from practical life, nor of the action in the community, giving the example that religious practice is not an end in itself, but the human modeling to fulfill one's mission of acting as a Kaliph. After his death as a martyr, his head was mummified and exhibited in the anthropological museum in Paris.

بالرغم من أن تاريخ هذا الولي يرجع إلى مدة حديثة فإننا لم نرد أن يمضي في صمت ونحرمه مكانته في كتاب سيرة الأولياء المسلمين هذه. فالحلقات الفريدة التي تسجل حياة هذا المتعصب تبين كيف ينشأ ويتطور بالجزائر هؤلاء المتمرتمون الملهمون الذين يثيرون بكثرة هذا البلد ... لحياته التي أفناها في الصلاة وبتقواه الشديد، بزهد بتجلياته الإلهية، بكراماته، و نهايته المجيدة . استحق سيدي موسى أن يكون من بين الأولياء المشهود لهم بالولاية بالصحراء الجزائرية وخاصة بالقصور المحيطة بالأغواط وعند أولاد نائل أين عاش مدة سنين .

ولد الحاج موسى بمصر بضواحي دمياط في بداية القرن الماضي فهجر وطنه و بدأ سياحته سنة 1823 واتجه في بداية الأمر نحو الجزائر أين تمت محاولة تجنيده في الميليشيات التركية ولكن ميله لم يكن نحو السلاح بل كان يحس بانجذاب للتصوف والمهمات الدينية. وبالرغم من أنه لم يتلق إلا تكوينا متواضعا و رصيده الفكري مؤلف سوى من بعض السور القرآنية إلا أنه كان رجلا يتمتع بفضله و قوة إرادة كبيرة لافته للنظر. كان بطرابلس سنة 1826 أين تلقى من

سيدي محمد الجفري بن حمزة المدني شيخ الطريقة الشاذلية (الدرقاوية) ¹الذكر * صلاة خاصة بالطريقة .
والورد * -الطريقة الخاصة للتعبد بهذه الصلاة .

و نجده عند بايلك وهران سنة 1827 أين أقام علاقات عديدة مع أعلام الزاوية الشاذلية و في سنة 1829 رحل إلى الأغواط فقدم إلى هذه المدينة مرتديا قراره (كيس خشن من نسيج الصوف و شعر الماعز) مستعملا مباشرة على جسمه الناحل فعاش من الصدقات مدة من الوقت. و كان ينهك أمعاءه بالصيام و شطف العيش وحينما تحتاج معدته إلى الطعام يخدمها بتناول دخان التبغ. وكانت له تجليات يناجي فيها ربه بألفه و كان يعلم أن محمد قد قال: " حياة العزلة هي ذاتها حياة تقوى ". و يلج بأكرا من باب الكشف الرباني و كان يستطيع قراءة المستقبل كقراءة الكتاب المفتوح .
والحال أننا كنا في سنة 1830 حيث تمكن الفرنسيون من احتلال الجزائر. فكتب الشيخ المدني شيخ الطريقة الدرقاوية إلى الحاج موسى رسالة يأمره فيها باستعادة عصا الترحال و زيارة سكان التل و الصحراء - بصفته مرشدا - المتهبة بحماس لقضية الإسلام الذي أصيب بخيبة فضيعة و مريضة . فالرجل الصالح الذي فهم أن أوان الفعل قد آن ، طلب من سكان الأغواط الانضمام إلى الدرقاوة ، وإعادة مئة مرة كل من الصيغ السرية الثلاث للطريقة ، وبتبعتها إقامة الصلوات الخمس المفروضة ، لكنه يجد بعض المقاومة خاصة من قبل الفرقة المطيعة لأحمد بن سالم * الذي قال له : "نحن من طريقة التيجاني، مرابط عين ماضي الوقور، و أسامي أي باسمه و حنكنى بنفسه يوم ولادتي بالتمر كما كان الرسول يفعل بأطفال المدينة * . فلا تأمل إذن أن ننقض عهد التيجاني ، وفي ذات الوقت، لن نقف في وجوه الذين يتبعون سبيلك من خاصتنا و الذين يريدون الخروج من طريقة شيخنا الموقر ". و من هذا الجانب أيضا لم يكن لسيدي الحاج موسى سوى بعض الأتباع أربعة أو خمسة على أكثر تقدير ، فكانوا يصلون معا و يأكلون حينما يتصدق عليهم ، و حينما يمنعون يبيتون على الطوى على حصر المسجد . وحينما يفتقر إلى الطعام يقوم الحاج موسى على الأقل بإشعال النار كالعادة ليعتقد الناس حينما يرو الدخان أنه و جماعته قد تناولوا العشاء و لكي لا يعانوا من التفكير في حرمانهم .

1 - يكون الدرقاوة أخوية عاش مؤسسها بدرقة، مدينة صغيرة بضواحي فاس بالمغرب. و هذه الطائفة تنبأ من كل سلطة مؤقتة لا تسخر سطوتها لنشر المذاهب الإسلامية كما عمد أتراك حكومة الوصاية بالجزائر على قمع العديد من الثورات المثارة من قبل الإخوان الدرقاوة فأصبح اسم الدرقاوي مرادفا للثائر. كما نذر الدرقاوة على أنفسهم الزهد و التخلي عن ملذات الدنيا .

* - قال الاستاذ والذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى ، بل هو العمدة في هذا الطريق ، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر . والذكر على ضربين : ذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب ، فإذا كان العبد ذاكر بلسانه وقلبه ، فهو الكامل في وسفه في حل سلوكه (أبي القاسم القيشرى ، د . ت ، ص 195)
ويضيف : الذكر منشور الولاية ، فمن وفق للذكر فقد أعطي المنشور ، ومن سلب الذكر فقد عزل . (علي بن حراز ، 1997، ص 233).

-*الورد في اللغة الشرب قال تعالى: " بنس الورد المورود ". وفي اصطلاح الصوفية ما يرتبه العبد على نفسه ، أو الشيخ على تلميذه من الأذكار والعبادات . (ابن عجيبة ، ج 1 ، 1331 هـ ، ص 160).

*أحمد بن سالم بن معمر بن زعنون حكم الأغواط بعد توحيد القبيلتين الأحلاف وأولاد سرقين من (1828-1852).

4(E. Mangin, La revue africaine p :714 - N38,189)

*التحنيك سنة واردة عن الرسول (ﷺ) وتعني مضغ التمر ، أو الشيء الحلو بفم شخص صحيح، غير مريض و وضعه في فم المولود، و ذلك حنكه به وذلك بوضع جزء من التمر الممضوغ على الإصبع النظيف وإدخال الإصبع في فم المولود، ثم تحريكه يمينا وشمالا بلطف حتى يتبلغ الفم كله به . وإن لم يتيسر التمر ، فليكن التحنك بمادة حلوة، و غسل النحل أولى من غيره، ثم مالم تمسه النار
التحنك تدل على أن يكون التمر أو الطعام الحلو أول ما يدخل جوف الطفل ، وعلى استحباب حمل الأطفال إلى أهل الفضل والصلاح من الرجال أو النساء لتحنك المولود للتبرك بهم

قرر سيدي موسى قبل الاتجاه نحو الشمال أن يلحق إهانة دموية ببني مزاب الخوارج * فدخل غرداية أكثر المدن أهمية في الاتحاد، حاملا على كتفيه قطعة من هيكل دابة لقي جثتها في طريقه ، فجال الطرقات مثنيا على الله بأعلى صوته . وكان بإمكان المواطنين الساخطين إساءة معاملته ولكنهم اكتفوا بإرسال أطفال المدينة في أثره ، يطاردونه بالحجارة.

ولم يتأخر صيت و لايته في الانتشار ليس فقط في الأغواط ، لكن أيضا بين القبائل البدوية التي كانت تلمس دعاءه وشفاعته عند العلي القدير ثم ذهب مبشرا بالطريق الدرقاوية في القبائل و القصور التي تجاور الخلوة التي اختارها لنفسه . فدخلت فرقة الأحلاف من بني الأغواط كاملة في طريقته و أخذت عنه الذكر . و بنت له زاوية ، وأهدت له جنتان ، ترك إنتاجهما لمريديه .

والتحق بالدعوة سيدي بلحاج عضو جديد ملهم بأن كلمات سيدي موسى الغامضة تتم عن تقوى شديد يرفع روحيا إلى ملكوت أهل بالملائكة. وارتفع أيضا عدد الوافدين على الطائفة الدرقاوية إلى أن بلغ عددا معتبرا، فكل يوم تأتي قبيلة كاملة تطلب الدخول في الطريقة التي يديرها سيدي الحاج موسى. بدو و مقيمون يسارعون جماعات أمام العريش الذي اتخذته الولي مقاما. فصار مريدوه أكثر عددا من مريدي مرابطي عين ماضي مما أثار قلق زعماء الطريقة التيجانية. تطوع سيدي موسى مدة إقامته بالأغواط للقيام بوظيفة مؤذن بمسجد الأحلاف داعيا إلى الصلوات الخمس الشرعية مع تنعيم في طبقات الصوت المألوفة بالشرق. وكان كل سكان الأحلاف في نشوة يسارعون في الطرقات أو على الأسطح كل يوم ، لسامع هذا الأذان المتناغم . فوهبته في تأدية الأذان بالجهات الأربع الأصلية ، لم تكن بالطبع غريبة عن نجاحه في دعوته بقصر الأغواط ،وما يزيد في سعادة دعوة سيدي موسى المؤمنين للصلاة قول محمد: "المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة".

أي أنهم أقرب الناس إلى الجنة ، بسبب كبير مزيتهم في الدعوة إلى الله . وفي سنة 1831 و طاعة لشيخ طريقته الشاذلية ، يغادر الحاج موسى الأغواط* و يذهب إلى مسعد أين سبقته شهرته ، فطلب عدد كبير من أولاد نائل الانضمام إلى الطريقة الدرقاوية و لإبقائه بقصر مسعد بني له بيت و زاوية .و هناك وردت له خواطر جديدة من السماء و أحاطه الناس بإعجابهم و احترامهم. و حينما شعر بارتباط السكان الكافي بالطريقة التي يمثّلها بالبلاد ، اتجه نحو المدينة مع بعض مريديه الذين لبسوا خرقة التصوف، فالولي الذي - بدون شك- لم يركب أبدا إلا الحمار لقب - ببوحار - (أي رجل الحمار)، ويذهب أتباعه عادة مترجلين يهرولون وراء الحيوان الذي له فضل ركوب الولي الدرقاوي على ظهره. و يبدو أن الحمار يقدر قيمة الكنز

* - يعتبر المذهب الاباضي من مذاهب الخوارج كما أطلق عليه بعض شيوخ من المذاهب الأخرى ولكن باعتباره مذهباً معتدلاً لا يتدخل بالعقائد الأخرى ويعتبر أن المصدر الأساسي للتشريع هو القرآن أساساً والسنة النبوية. ويختلف المذهب الاباضي عن المذاهب الشيعية في الكثير من التشريعات الفقهية والعقائدية. (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والاحزاب المعاصرة دت ، ص33).

وتنسب الاباضية إلى مؤسسها عبد الله بن اباض التميمي بينما ينسب المذهب إلى جابر بن زيد التابعي تلميذ السيدة عائشة وابن عباس. وينفي الاباضية انتسابهم إلى الخوارج كما ينفون ان تكون الاحاديث الواردة عن رسول الله صادرة بحقهم وهم يرون ان مصطلح الخوارج اطلق عليهم لدواعي سياسية في عهد بني أمية.

* - يقول ابن خلدون في تسمية الأغواط - كما كتب - هم فخذ من مغراوة أيضا فهم من نواحي الصحراء ما بين الزاب وجبل راشد ، ولهم هناك قصر مشهور بهم فيه فريق من أعقابهم على صغب من العيش لتوغله في الفقر وهم مشهورون بالنجدة والامتناع من العرب ، وبينهم وبين الدوس أقصى واد ميزاب مرحلتان ، وتختلف قصودهم إليه لتحصيل المرافق منه والله يخلق ما يشاء ويختار. (ابن خلدون ، مج13 ، 1981، ص100).

الذي أوكّل إليه و حينما تردّ لسيدي موسى المكاشفات في طريقه ينزل الحمار المقدس أذنيه من ثقل الواردات. وفي العديد من المرات . يشهد مريدو سيدي موسى وأتباعه الكرامات التي اختصّه الله بها فأمنوا بامتلاكه موهبة الخوارق.

وفي يوم من الأيام كادت شدة الحرارة تودي بحياته و حياة مرافقيه. فاتجه سيدي الحاج موسى دون تردد نحو موضع بالصحراء لم يعرف أبداً بوجود الماء به كما لم ير به أثر للرطوبة. فكيف توصف دهشة وإعجاب مريديه حينما رأوا أمامهم مستوى ماء أصفى من البلور وأعذب وألذ من ماء زمزم (1) ولا حاجة إلى ذكر . بعد الثناء على الله و شكر الولي متّع القوم أعينهم و أثلجوا صدورهم بالماء¹

لم يهتم سيدي موسى قط قبل نيته السفر بإعداده مؤن الطعام للعديد من التابعين الذين يرافقونه دائماً، و- هكذا مثلاً- في مسيرته بين الاغواط و بوغار ، وسط هذه السهوب القاحلة و بدون مصادر يسبقه الطعام (الكسكس) دائماً ، تأتي به أيادي خفية في الموضع الذي يختم به الولي ودليل واضح أيضاً على التدخل الإلهي في هذه القضية – قسمة الواحد تكفي لإشباع العديد من أتباع الولي ، وهذه و قائع مشهودة يرددها عرب هذه المنطقة ولا مجال فيها للشك ، و الإشارات الأولى لهذه النعمة الإلهية التي ترتبط بشخص سيدي موسى تحدث بالأغواط ففي سنة 1832 حينما حاول بن شهرة شيخ الأرباع الاستيلاء على المدينة بطلب من سكان القصر، خرج سيدي موسى ضده على رأس عشرة رجال ، فأخذ بن شهرة جيادهم. لكن الحاج موسى العائد إلى الأغواط قال لشيخ الواحة: "أذهب وقاتل العدو غداً مع طلوع الفجر ستقتل له أحد عشر مقاتلاً وستزعمه وستنجز الأمور شيئاً فشيئاً". أما الجياد العشر المسلوكة من

فرقة سيدي موسى الصغيرة ، فقد استرجعت في الغد بعد تدخل الشيخ بن سالم وليبدو في نظر الرجل الولي لطيفاً أهدي بن شهرة شاه إضافة إلى الجياد العشر . كما عقد صلحاً مع سكان الاغواط .

وفي سنة 1834 ذهب سيدي موسى إلى الحضرة بجبل السحاري واستمر في دعوته الدرقاوية بنفس النجاح الذي حققه بالأغواط و مسعد . وتدفق الحجاج من كل فج للقصر الذي اختاره للإقامة . وانهالت العطايا من كل الأنواع خاصة النقدية على خرقة ، كبركات السماء . لكنه لم يستثمر هذه الثروات إلا في خدمة المصلحة الدينية ، أي لتحقيق المهمة التي يتابعها فبنى بالقصر زاوية ومسجداً. لكن بينما كان يهتم بالدعوة إلى الطريق و المهمات الخيرية. كتب له قرايب التيطري المنتسبين لجماعته الرسالة تلو الرسالة لحملة على الالتزام برفع راية الجهاد (الحرب المقدسة) و حسب هؤلاء المستعجلين فقد آن الأوان وولى عهد الخطابات ليفسح المجال لعهد الفعال. ولكن لم يكن قط هذا – على ما يبدو- رأي الحاج موسى إلا أن الأمر انتهى به- ذات يوم –إجابة المتلهفين القرايب الاجابة التالية: "إخواني ، قبل التفكير في محاربة الرجال يجب محاربة أنفسنا ، ضد شهواتنا ، ألد أعدائنا نحن فقراء وليس لنا سلاح سوى الصلاة و لنترك للتقدير أمر تخلصنا من الكفار". وهذا ما حكى لي عن قريب ظهرت ريح عاتية أخذت الظرف الحاد و المر للثمة و لم تستثني سوى اللب .

لكن سيدي الحاج موسى كان يقوم في هذه المدة ، بزيارة التل لتقييم حالة اتباعه الروحية فالتقى بالبليدة بالحاج الصغير بن سيدي علي بن مبارك ، مع البركاني و بن سيدي الكبير بن يوسف الذين ألزموه بالحاج بإثارة عرب الصحراء لدعم صفوف المجاهدين ، وكان السلطان عبدالقادر منشغل جداً ببسط النفوذ بجانب تلمسان ولم يكن يفكر بعد في بقاع

1- بئر زمزم قريب من مكة. و يستوجب على كل حجاج المسلمين الشرب منه، فماء هذه البئر تمتلك من بين الخصائص الأخرى الزيادة في قوة الإيمان. ويعتقد المسلمون أن هذه البئر حفرت من قبل جبرائيل حين ما ضرب الأرض برجله الملائي لأجل هاجر أم اسماعيل ، اللذان كانا يتواجدان وحيدتين بالقرب من مكة ، وكادا بالتأكد أن يموتان من العطش لولم يأتي الملك جبرائيل لنجدتهما .

الشرق .

ولم يتردد الولي مذ ذاك ، وفي كل مكان جمعت التبرعات النقدية و المؤن الغذائية ، ودعي كل الدقاوة لملل اللال ، قبائل اللول و خاصة أولاد نائل المساهمين بعدد أوفر من العطايا و بعدد من المقاتلين المتعصبين . واجتمع سريعا تسع مائة من الرجاله رثيثي الثياب و أربع مائة فارس ، وأغلب هؤلاء المقاتلين لم يكن لهم سلاح سوى عصي أو بنادق ذات قيمة بخصه . بهذا الجيش الممزق والذي لم يحدث أي تغيير على لباسه العادي ليكون كالذي يرتديه جنود درقاوة ، كان الحاج موسى يخطط لغزو الجزائر لأن قرار الالتزام بغزو الجزائر ألتخذ ، احتفاليا و بإلجام - طبعاً بعد طرد الفرنسيين - ولم يجد الأمير عبدالقادر لنفسه من فضل أمام هؤلاء المتحمسين والحاصل أنه كان صديق النصري لعقده الصلح معهم . ألهب سيدي موسى القلوب بخطابه المحتدم و المقنع وقرأ على العلماء آيات مختلفة من القرآن تعلن عن قدومه و لا يمكننا بوضوح

فكان إذن المهدي مول الساعة ⁽¹⁾ ويظهر الجزائر المدينة الفخمة للجميع، كغنية، في هذه العملية المقدسة سيجدون المجد، فلم يهتموا كفاية بالمنفعة و السلام الأبدي وكانت الحماسة في أوجها و استجابات صيحات الفرل لهذه الوعود الكثيرة ، و انطلقت هذه اللجامات المتضورة جوعا و المقملة للجهاد، و في هذا الاضطراب الغير الموه الخاص باللمتجمعات البدائية أو الخرفة التي تجاهر بكره شديد - و مكن قوتهم - الاستقامة على الدرب السوي ، فالولي يركب الحمار و يستعجله و يحافظ على سرعته عن طريق الحركة المتساوية الديمومة لطنبويه الطويلين ، يتقدم الرتل ، لأننا لازلنا بعيدا من العدو ووجهه يشع بمجد الأولياء . ولم يكن سعيدا لاختياره تنفيذ المقادير الإلهية.

فمريدوه المخلصون يمشون بجانبه، ويتناوبون ليتمكنوا من الصمود من كل جانب، وأطراف برونسه القصيرة والمربعة بقطع الكتان المختلفة الألوان، هذه القطع المخيطة والمهملة باحتقار كلي لتوازي الخطوط والتناسق. وتقريبا من كل جوانب الثوب والتي تبدوا أن لها مهمة الحجب والتمويه ، وبالتدرج يتقدم الرتل ويكبر، ففي كل خطوة تلتحق زمرة من الراجلين من سوقة الناس أو زوج من الفرسان يأتون للانضمام إلى جيش الله، ويتسارع هؤلاء وأولئك بعد إعلامهم بموضع المحلة أين يقيم الولي ويهرعون إليه دافعين كل ما يعيقهم بقوة لتقبيل كل ما يمكنهم الاقتراب منه ، وغالبا ما يستقبل الحمار ملاطفات المعتقدين في الشيخ ولكن ماذا يهم لأن الداب والشيخ لا يشكلان إلا واحدا في التقائهما، فالقبلة الموجهة إلى الولي تصل إليه عن طريق الحمار بالنيابة، والأكد أنه لا يمكن الاقتراب من زعيم الدقاوة بسهولة فحاشيته تستأثر به - أضف إلى ذلك - فأكثر من مريد متحمس يردع بضربات عصا متتاليات، ولكن المريد الولي لا يغتاط في النهاية ما يأتي من التلاميذ يأتي من الولي ولكن بطريقة غير مباشرة ، وفي النهاية يرضى المعتقدون وهذا هو الأهم . وبوصوله إلى بوغار ارتفع عدد جيش سيدي موسى بأعداد معتبرة وكانت تتألف إذن من ألفين من الراجلين وثلاثة آلاف من الفرسان .

كانوا كما قال الحاج قارة أحد علماء المديّة اللمميزين كأرجال من الجراد كلما مرت على قرية أتت على ما فيها من مأكل في يوم

1- المهدي هو الذي يقود ، يوجه إلى الصراط المستقيم . مول الساعة هو صاحب الزمان ، الرجل الذي توكل إليه المرحلة الخطيرة والملينة بالأحداث رسول زمانه . و بالجزائر هو كاليسوع المنتظر ظهوره دائما . وكل محرض يحاول الاتصاف بالصفات المذكورة في الكتب المباشرة به . وستكون مهمته الأولى بالطبع تحرير أرض الإسلام من الفرنسيين والرمي بهم في البحر . وبالرغم من قلة تنوع برامج الأشراف و اخفاقهم المتكرر ، يعتقد الأهالي فيهم بالرغم من ذلك . ويواسون أنفسهم قائلين: "لم يكن لنا في الأمر من خير".

واحد ، ولكن المؤمنين الصادقين لا يشكون لأن ذلك في سبيل نصرته قضية الإسلام المقدسة . فمن قبيلة مفتوح أعلن سيدي موسى لأهل المدينة نفسه كمرسل إلهي وحذرهم في نفس الوقت بالزحف على هذه المدينة والتي سيكون أماتها في بضع أيام .

لكن شيئاً فشيئاً كبر تعداد قوات جيشه و أصبح عصي القيادة، فقسّم الرجل الصالح الجيش إلى قسمين بالتساوي ، وأخذ القيادة المباشرة للفيلق الأول وأسند قيادة الفيلق الثاني إلى سيدي قويدر بن سيدي محمد بن فرحات مستأثراً بالتسيير العام للعمليات وكما تم الإعلان عنه ، وبعد ثلاثة أيام ، بدأ جيش سيدي موسى للأُنظار على مشارف المدينة عاصمة التيطري ، وخيم جنوبها. وخوفاً من أن يأكلوا من قبل هذا الجيش الذي يقبض بهضاب المصلى كركام دود في لحوم نتنة ، أرسل علماء المدينة في إرسالية لدى المجاهد الصالح ليتعهد لهم بعدم التقدم نحو مدينتهم ، فعارضوه مؤثرين مصالحهم المادية على مصلحة الدين ، وأن الحشد الذي يتبعه سيخرب البقعة ، مضيفين : "إذا اقتربت من جدراننا سنستعمل أسلحتنا" . أجاب سيدي موسى : "لا أريد إراقة دماء بني وبين سكان المدينة ، و لم آتي هنا قط لقتال المسلمين بل برمي الفرنسيين إلى البحر وحليفهم الخائن عبد القادر ..."

أما ما يخص تهديدكم باستعمال القوة ضدي ... أنظروا ما يحيط بي من أعداد وأخبروني إذا لم يكن من الحكمة الالتحاق بي ؟ - زد على ذلك - أليس الجهاد فرضاً مقدساً على كل المسلمين ؟

انسحب سيدي موسى شاعراً بعدم ضرورة جهوده وعاد الوفد نحو المدينة. وبعد هذه المقابلة المهمة ، اقترب سيدي موسى من الساحة أين كان ينوي الدخول عنوة فالتراقلة و الحضر ، خرجوا للقتال في الحقائق وكان الولي وقتئذ مقبلاً للصلاة ، فاقصر على إرسال بعض المفرزات ضد الجنود المهاجمين الذين أسرعوا في الدخول إلى الحصون متابعين عن قرب من طرف الدرقاوة الذين قادوهم علانية إلى غاية حصن المدينة ، وتقدم سيدي موسى على رأس مجموعاته التي تدخل الساحة متتبعين مليشيا المدينة ، وتحت تأثير الخوف الذي لم يحاولوا إخفاءه ، وضع أهل المدينة بطارية على الصور ، المدفع الوحيد والفريد المكون لسلاح الساحة ، وصوب نحو الولي المنعزل عن مجموعته - على ملمح البصر - وعن المدافعين عن المدينة ، وتطلق النار في الوقت المناسب على زعيم الدرقاوة ، لكن يا للمعجزة ينفجر المدفع ويقتل اثنين من المدفعيين. وارتفع صوت الحمد لله الهائل المحي لهذا التحلي الواضح للحفظ الرباني .

وبالعكس شعر السكان بالخوف وعم القلق ، وأمضى أهل المدينة المطمئنين قليلاً الليل على السور ، الذي يمثل مانعاً رديء النوعية لا يكفي لإيقاف الجماعات المتواضعة التسليح كما كانت جماعات سيدي موسى ، ومع بزوغ الفجر حاصر الدرقاوة المدينة. ومنذ ذلك الوقت شعر السكان بالضياع فتراهم رجالاً، نساء و أطفالاً مسرعين بجنون بقرب الولي يرمون على أرجله طالبي الأمان فمنحهم سيدي موسى العفو الذي يطلبون بسخاء ، لأنه كما قال: " لا يريد قط إراقة دماء المسلمين بل يفضل النصر على أهل المدينة بالرحمة والكرم على القوة والعنف ، وفضلاً عن ذلك ألم يقل النبي أيضاً : " ومدة اثني عشر يوماً سادت علاقات محبة بين السكان والخيم على الأقل من جانب درقاوة لأنه بينما كان هؤلاء المخادعون يخونون ثقة الولي بإظهار براهين صداقة مزيفة وبوعود أقسموا بنكثها، أخبروا الأمير عبد القادر بما يحدث لهم ، واستعجلوه للتدخل مصورين الحاج موسى كخصم أكثر خطورة لتظاهره بالدين .

وخشية من عدم قدرة الأمير من المحي لإيقادهم توجهموا أيضاً إلى الحاج أحمد باي قسنطينية: "شخص يدعى موسى - كتبوا إلى عبد القادر - هجم علينا ولم نستطع مقاومته وقواته كانت معتبرة جداً وهو الآن بيننا، أنجداً، أنقذ نساءنا وأطفالنا من الذلة والعبودية "

كانت السيطرة على المدينة كلية فقرّر سيدي موسى التقدم إلى الأمام في اتجاه واد واجر ليزحف على البليدة من هناك

لكن بمرجة الترك بالقرب من موزايا التحق درقاوي من قبيلة العوامري بالرجل الصالح وقال له: "الأمير عبد القادر يستشيط غيضا منك ، أسرع في الذهاب إليه ملتمسا رحمته ، وإلا فستضيع أنت وجيشك فهو قوي جدا ، لنلا تستطيع التفكير جديا في قتله ، والآن كل إقليم وهران خاضعا له ، وكل الوطن بايعه على الإمارة ". حسنا ! أجب سيدي موسى باستهزاء سأستسلم له ". غير أن هذا الخبر غير من ترتيبات الولي الدرقاوي الذي انخرط يسارا ، وخالف مشاريع أتباعه المحبين للغمية فهجره ثلاثة أرباع جنده الذين لا يهتمون بالإضافة إلا ذلك لمواجهة رجل قوي جدا كالأمير ولم يبق لسيدي موسى إلا التسعة من المشاة والأربعائة فارس الذين قدم بهم من الجنوب ، ولم يكونوا أحسن تسليحا أو تجهيزا من الانطلاق لكنهم كانوا يعوضون هذه المزايا المادية بالإيمان وثقة عمياء في زعيمهم الوقور ، وإيمان تام بقداسته مهمته ، بالرغم من هذا النقص الموهل في جيشه لم يستمر سيدي موسى في الزحف لمواجهة الأمير .

كنا إذن في آخر أيام مارس 1835 ، ختم عبد القادر أسفل الجبل العوامري بعمورة وعبر الشلف في الغد من قدمه لهذا المكان ، وفي منتصف النهار كان الحصان حاضرين يفصل بينهما واد عميق جدا متجمهرين في غليان بلا نضام واضطراب متلهفين للتصادم. هذه الفوضى تفصل بغربة مع الهدوء وعلمية التكوين خاصتنا لهاتين الكتيبتين المنظميتين والذين هما من تكوين حديث من جانب الأمير - العلم والعدد ، ومن جانب درقاوة الجبل التعصب ، فللأمير عبد القادر مدفع وبنادق وأما موسى الدرقاوي فبنادقه قليلة ، لكنهم أكثر خطورة على الراي من الرمي ، وعوضا عن ذلك هؤلاء المتحمسون مزودون بخناجر وسيوف قديمة صدئة مثلمة كأسنان منشار وغزازل برؤوس مصفحة ، ولا تنقص الأحجار في الميدان ، كما لم تكن خطتهم خطة مواجهة لمنع النظاميين من استعمال أسلحتهم وإن لم ينتصروا ، سيكون لهم على الأقل شرف إلحاق أكبر أذى ممكن بالعدو .

- فخرم سيدي موسى وخليفته سيدي قويدر وعدد كبير من النساء أو البنات يرجعن إلى المقاتلين الأساسيين في جماعات الدرقاويين واللائي فضلن إتباع أزواجهن أو إخوانهن ، أو بعض عشاقهن يحفظن في هوداج خلف ساحة المعركة تحت رقابة الفرسان المكلفين بحفظ المتاع وسائقيه ، والكثير من هؤلاء النسوة من قبيلة أولاد نائل ، هن صويحبات مبادئ وعيون متقدة وصدور مثيرة ويبدو أنهن يتحرقن شوقا للمشاركة في المعركة.

أقيمت صلاة الظهر في كلا الجانبين ، ثم حمل سيدي موسى نفسه على تلة صغيرة كانت خلف معظم كتيبته ، الحدقة ملتببة ، الكلمة وجيزة ومهتزة قليلا : " هيا يا إخواني ، آن الأوان عدونا حليف النصرى ، هنا أمانا لقتالنا ، لا يخشى هو ابن الحرام إراقة دماء المسلمين. هيا تراصوا يا أبنائي واعقدوا نواصيكم لأننا اليوم سنقاتل من أجل الاسلام ! هيا يا بنو الموت ! اذكروا أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل * . وهذا جزاء عظيم ، لكن تذكروا أيضا أن من يولي دبره للعدو أو يمتنع عن قتاله : يلقي عند الله خزيا ويسكنه جهنم خالدا فيها ! ويلتفت نحو كتائب الأمير ويصيح بأعلى صوته المرتج على أميرهم اللعنة . وأنت يا ولي الكافرين يعجل الله بخزيك و هلاكك أنت ومن معك ! فالقدير سبحانه يمكننا من جندك وتدور الدوائر

* - قال الإمام أحمد: "حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن أبي إسحاق حدثنا إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد عن أبي الزبير المكي عن ابن عباس قال : "قال رسول الله ﷺ لما أصيب إخوانكم يوم أحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتاكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم، وحسن مقيلمهم قالوا يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لنلا يزهودوا بالجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله عز وجل: "أنا أخبرهم عنكم فأنزل الله هذه الآيات ((ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون)). (أبي الفداء إسماعيل بن كثير ج 1، دت، ص 427).

عليك وعليهم ولتقتسم الطيور الجوارح وبنى آوى جسدك وأجسادهم الملعونة أيها الصابئون !

ما كاد يكمل سيدي موسى كلماته الأخيرة حتى وجهت إليه طلقة رشاش من مشاة الأمير، وسط هذا الحشد الصائح فلم تضع منهم قذيفة وتبع رشقات أخرى بسرعة فساط مصفرا هذه الكتل الغير منظمة بعيدا من أن يكونوا مدعورين من هذا الضرر الذي تحدثه كل طلقة مدفع بينهم لهم الدرقاوة متحمسين وبشدة على كتائب الأمير وينقضون عليهم في غضب انقضاض الأسود على فرائسها. واختار كل من مشاة الدرقاوة خصمه في النظاميين فيجب أن يخسر الواحد أو الآخر، هناك مجابهة إذن، اشتباكات فضيعة، الموت وحده يتمكن من حلها، خناجر المريدن مغروزة في أجساد جند الأمير شاقة اللحوم، وفنتحت السيوف جروحا فاغرة كأفواه قرب يسيل الخمر منها بغزارة. يبحثون أحشاء النظاميين إلى غاية حد الكلى، والعصي وأخمس البنادق تهوي على المهاجم فتكسرهما كقرع مجحف يسحق. قريبا التحام عنيف عطل سلاح مدفعية الأمير لأنه لم يرد المجازفة بالرمي على جنوده.

اندفع الأربعائة فارس التابعين لسيدي موسى من جهتهم صوب خيالة الأمير واقفين على سروجهم واللجم بين أسنانهم، شاهرين أسلحتهم من بنادق وسيوف وعصي. و تلاقى خيالة عبد القادر الأحمر و ذوو الثياب النخرة لسيدي موسى واصطدموا وتداخلوا، فأفرغت البنادق في الصدور - واستحال تلغيمها ورجعت الكلمة للسيوف والعصي - خاصة فرسان الأمير - الحديدية الموجهة لصد جنود المشاة والاصطدام، هذه العصي - نقول مرعبة - شقية تلك المهاجم التي تلقاها. والسيوف تقطع وتمزق اللحم بلذة، والصوارم تهرق الدماء وتزهق الأرواح خارج أجسادها بشدة. وتلقي أصحابها الفرسان النبلاء على نواصيرهم فوق الثرى غرقى في المد الأسود من دمائهم، ولكن التلاحم أصبح أكثر فأكثر ضراوة، فالفرسان الدرقاوة صقور الملاحم انصبوا على جنود المشاة وسقوهم كأس المنيا وتشبثوا به حتى تفيض أرواحهم ثم يتركون لهم الأصابع دكناء ملطخة تنته من رد أمعائهم فيالها من ضربات جميلة يظهرها هؤلاء الفرسان الرائعون من الصحراء، ولكن لنكن واضحين وصرحاء فهم يواجهون خصما عنيدا جنود الأمير عبد القادر الذين لا يستهان بهم وأكثر من أحد حرم غريمه من أفه أو من أذنيه أو من كتف أو من قبضة يد. فالأرض مختلطة بهذه القطع الدامية، وأحد هؤلاء الفرسان الأحمر، خاصة سي بلقاسم كان يستحق كالشهير الحسن بن محمد لقب الحجام المتميز بالبراعة الفائقة التي بواسطتها يضع خصومه خارج المعركة. حيث يضربهم دائما على عروق الذراع، وانتهى بإلقاء الرعب في قلوب من حوله. وبدأ الدرقاوة في الشعور بالوهن و التولي أمام سيفه الدمشقي المربع الذي يلوح في السماء بانحناءاته الدموية التي قطعت العديد من زناد الشجعان.

ولكن البعض من بنات أولاد نائل التي يمتطين الخيل، كن قد لاحظن هذا التولي فبدت ملامح الخزي في وجوههن وانتصبن باندفاع يتلفظن بألفاظ تهديد جارحة ومهينة وأثوابهن في اختلال في مجابهة المتولين: "إلى أين تتجهون يا رجال؟" صرخت مسعودة بصوت ملؤه السخرية: "هل هذه وجهة الأعداء؟" أم هل يجب اليوم أن يقتني لكم النساء أثره؟ هيا فليتبني أهل الحمية هيا أيها المحاربون الأحرار أجمعوا على العدو

إن تقبلوا نعانق ونفرش التمارق وإن تدبروا تفارق فراق غير وامق

أما الجبناء المتولين فساحتقروهم ولكن يرافق هذا الاحتقار الخزي والعار "وأخريات يتجردن من ثيابهن و يكشفن في عيون الذين يضعفون كنوزا يحسدهن عليهن الحواري ويرتقين بينهن صارخين: "إلى العدو يا رجال" احموا الوطيس شدوا الالتحام أجسادنا للأكثر شجاعة واحتقارنا للجبناء...هيا تشجعوا يا أبناء نائل تشجعوا أيها المدافعون عن النساء هيا اضربوا بسيوفكم البتارة إلى العدو إلى العدو" فرجع الفرسان الدرقاوة للمعركة .

وبعيدا عن ذلك تندفع مليكة بنت الفحل نحو فوج من الفرسان وتلتوي تحت متابعة المشاة المكتشفين لعنقتها الباهر ونهديها الشيبين بالأترج فصارت العزة مهددة فصرخت في ذويها:

"يا أبناء نائل، من أراد أن يمتص من هذا الحليب فما عليه إلا اتباعي".

وأُسِّرت إلى ساحة الوغى أين جرت الهاربين لا شيء أجمل من هؤلاء الرائعات اللاتي يلقين بكل مفاتهن ووعودهن بالحب في ساحة المعركة ليحمين الرجال وإحدى نساء سيدي موسى مراولة بنت لحول، التي حمسها الدم والملمحة، فغادرت هودجها وأسَّرت تلعن الأمير في أحد مواضع القتال أين كانت المواجهة حامية ومخيفة وهنا متربعة على جثث المشاة صنعت عقدا أو سوارا من أنوفهم وأذانهم.*

متزينة بهذه الحلية الشنيعة تبقر بطن ضابط المشاة مسعود بوشارب الذي قتل في المعركة، فتنتزع كبده وتمضغها بأسنانها. نعود لجنود سيدي موسى الرحالة الذين تركناهم متقاتلين مع نظامي الأمير وبفضل حركة من هؤلاء الغير نظاميين الذين فسحوا لهم المجال بتنظيم أنفسهم واغتنام الفرصة واستعمال الحراب وقت تبادل التهديدات والشتائم بين الطرفين.

ودارت رحي الموت على رؤوس المقاتلين وسحقتهم كرحى الطاحونة تسحق الحب الذي يسلّم إليها وفي كل لحظة يبعث أحد المقاتلين وقدميه مضرجتين بالدم إلى أهل القبور. الموت الأحمر يعمل عمله خفية وبدون رحمة، وسيدي موسى بإقدامه الرائع وبجسارته العين ملتبة، الزبد في الفم، والمناخر متسعة يحتمس جنوده بكلمات ملهية تلقي في قلوبهم الحدة التي يمتلكها فهو حقيقة رائع في برنوسه المرقع باثني عشر رقعة كثوب عمر ثاني الخلفاء الراشدين*، ويده مرفوعتان نحو السماء كأنه يدعو الله لعونه: لأنه يعلم أن القسمة غير متساوية.

بالفعل امتلأت ساحة الوغى بجثث الدرقاوة مكدرين على بعضهم البعض، ونعرفهم بسهولة ببرائسهم الترابية المتباينة والمملوطة بالدم وفي أي مكان وضعت الحرب أوزارها المظلمة فيه جثث رقاء سيدي موسى محدودة بين الأرض كقبور في مقبرة، معترفين باستحالة الانتصار، و تجد فرسان الولي الدرقاوي المرشوشة بمدفعية الأمير التي استطاعت أن تتخذ موقفا وتمزقهم إربا إربا متى استطاعت من القضاء على الراجلين. هؤلاء الخيالة -نقول نحن- تفرقت بالرغم من جهود النساء في جميع الاتجاهات تاركين للعدو بعض النساء الراجلات، وظلت بعض أفواج المشاة تكافح ولكن الخسارة أكيدة. وفي بعض اللحظات سينتهي كل شيء ف جيش سيدي موسى المنافس للأمير قضي عليه، و بالفعل في نهاية المعركة، كانت بقايا هذا الجيش - أو بالأحرى هذه الجماعات - تبحث هاربة عن النجاة والأمير عديم الشفقة يتبعها بقبائله مع أن المعركة التي كانت شديدة الضراوة في البداية لم تدم سوى

أربع ساعات و لم تكن خسائر عبد القادر بالمعتبرة كما توقعنا، نعم ففي كل الأحيان هذا الانتصار الذي أحرزه المخطوط عبد القادر له مزيّتان أولهما: التخلص من خصم يمكن أن يكون خطيرا وثانيهما تثبيت نفوذ بالتيطري كالذي يتمتع به بمقاطعة الغرب، أما بالنسبة لسيدي موسى فقد وفق برفقة خمسة أو ستة من مورديه المخلصين من الأغواط من الاختفاء و النجاة من متابعة فرسان الأمير وتمكن من الوصول إلى جبل موزاية وفي النهاية بعد مجموعة مغامرات كادت تودي بحياته

*- اتخذت هند بنت عتبة من آذان الرجال وأنوفهم خدما (أي خلاخل) وقلاند وأعطت خدمها و قلاندها وقرطها وحشيا غلام جبير و بقرت عن كبد حمزة فمضغتها فلم تستطع أن تستسيغها فلفظتها لأنها كانت نذرت إن قدرت على حمزة لتأكل من كبده. (محمد رضا، 1961، ص200).

*- والحكمة من لباس الشيخ مريديه خرقة التصوف كما اشار ابن عربي بقوله: فلم نزل نلبسها (أي الخرقة) للمريدين كما لبسناها، فنزع من المريد جميع الأخلاق الرديئة مع الخرقة التي نلبسها له. فمن أعطاه الله ما ذكرناه، فليلبس الخرقة لغيره، وإلا فليزيم الأدب مع الأشياخ. (أبو الوفاء التفتازاني، 1969، ص319).

تمكن من بلوغ مسعد تارة محمولا وتارة مسنودا من قبل مرافقيه ، لأنه أمضى منذ انطلاقه إلى التل مر بأحداث رهيبة تفوق طبيعة البشر.

وبالرغم من هزيمة سيدي الحاج موسى، ظل يتمتع مع ذلك بإجلال كبير في أوساط سكان الجنوب الذين أقام بينهم نهائيا كملاحظ للتقاليد الدينية: كان يبادر إليه من جميع أنحاء الصحراء الجزائرية ليستمد من حكمته ونصائحه ويلتجئ منه الوصول إلى المولى وبعد أن تخلّى عن ثياب الدرقاوة الرثة أيضا إلى الحرمان الذي يؤدي إليه على الأقل الزهد في خيرات العالم والفقر القديم لم يفقد شيئا من سمعة قداسته والاحترام الذي يرتبط بهذه المكانة الروحية. وأخيرا في عام 1849 أثناء حصار الزعاطشة يرى سيدي الحاج موسى النبي في منامه يأمره بحمل السلاح والذهاب لقتال الفرنسيين بجانب سيدي بوزيان الذي حرّض سكان الزيان والذي حوَصر بالواحة التي أشرنا إليها مع الأتباع الأكثر تعصبا في القطر.

واستطاع سيدي موسى الولوح إلى المكان في بداية شهر نوفمبر أي في الوقت الذي حمي فيه الوطيس، وقاتل مدة العشرين يوما الأخيرة من هذا الحصار الدموي الرهيب.

وأثناء الهجوم النهائي الذي تزامن مع الثامن والعشرين نوفمبر وفي الثغرات المفتوحة في سور القصر تقاسم سيدي الحاج موسى نفس المصير مع سي بوزيان ومات ميتة مجيدة بجانبه وكان الرجل الصالح يومها ابن الثالثة والخمسين وكان قد مضى عشرون منها منذ ظهوره أول مرة بالأغواط فبكت قبائل الصحراء وقصور مسعد والأغواط موت الرجل الصالح مدة سنين طوال ، وبقيت ذكراه محترمة مبعجة إلى حد التنافس زمنا طويلا في المنطقة على اقتناء كلما كان يملكه من شاشيات¹ قديمة من بين الأشياء الأخرى التي توقف عن لباسها وبعضها بيع بمئة دورو (خمسة مائة فرنك) وهكذا انتهت حياة هذا الشهيد القوي² هذا البطل الشهير من أبطال الإسلام وبالرغم من تاريخ وفاته الحديث فسيدي الحاج موسى الولي ليس أقل شهرة في منطقة الأغواط وفي الوطن المحتل ، أو الأراضي المرتادة من قبل أولاد نايل أين يطلب منه العون حينما تستدعي الظروف التدخل الإلهي.

مصادر التعليق

- ابن خلدون ، 1981، كتاب العبر ، مجلد 13 ، ص 100 ، لبنان ، دار الكتاب اللبناني .
- إسماعيل حقي البروسوي ، د.ت ، تفسير روح البيان ، لبنان ، دار الفكر للطباعة والنشر.
- أبي الفداء إسماعيل ابن كثير ، 1965، السيرة النبوية ، ج3، مصر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه.
- أبي الفداء إسماعيل ابن كثير ، د.ت ، تفسير القرآن العظيم ، مصر ، دار احياء الكتب العربية.
- د/أبو الوفاء التفتزاني ، 1969، الطريقة الأكبرية ، الجمهورية العربية المتحدة ، دار الكتاب العربي .
- مج .من المؤلفين ، د.ت ، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، دون الإشارة إلى دار الطبع .
- علي ابن حازم ، 1997، جواهر المعاني ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
- زين الدين أبي القاسم القشيري ، د.ت ، الرسالة القشيرية ، مصر - القاهرة ، دار جوامع الكلم.
- ابن عجيبة ، د.ت ، ايقاظ الهمم ، مصر ، دار المعارف .

- E .Mangin, 1986, La Revue Africaine - N38 -Alger-Opu.

- Le Colonel C.Trumelet, 1892, L'Algérie Légendaire, Augustin Challamel, Editeur Paris

¹ - طاقية حمراء من الصوف.

² - الذي يموت دفاعا عن دينه.